

لمؤدّب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٢٥ -

« ممدرة إلى القراء، من هذه الفترة التي انقطعت فيها عن الكتابة، وأشكر لهم. وعلى العهد لهم أن أوالي الكتابة حتى أفرغ من هذا التاريخ. وممدرة ثانية إلى صديق الأستاذ محمود أبورية مما كان مني إليه، وسيأتيه ردى بعد قليل »
العريان

الرافعي والعقاد

لما مات المرحوم شوقي في خريف سنة ١٩٣٢، اهتزت لونه الجامعات الأدبية في مصر والشرق؛ فما تجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم لهذا النبأ واحتفل به. وتهبأت «المقتطف» لكتابة فصل أدبي عن أمير الشعراء، فأفرغت بضعة عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكاً أن يصدر، وأبرقت إلى المرحوم الرافعي في طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن يتم طبع العدد

ولم يكن بين الرافعي وشوقي من صلوات الود ما يتيح له أن يعرف شيئاً من حياته يمينه على دراسة أدهبه؛ ولا كان الرافعي مستمداً لهذه الدراسة ولا تهبأت له من قبل أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه في ذلك الوقت العاجل. وإن الرافعي لكثير الأمانة والتأنق فيما يكتب، فلا يبدأ في إنشاء موضوعه حتى يخيل له فكره أياماً وليالي، يبحث ويوازن، ويأرجح ويستنبط؛ ثم يهيا للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كأنما قرأه لساعته في كتاب. ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعي أن يجيب محرر المقتطف إلى ما طلب، وأرسل مقاله في الموعد المضروب. وكانت دراسة أعتقد أن أحداً من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقي أو يبلغ ما بلغ الرافعي بمقاله، فأ نصف شوقي، وجعلت عبقريته، وكشف عن أدهبه وفنه ومذهبه. دع عنك بعض هنوات قليلة لا تقض من قيمة هذا البحث الفريد

(*) راجع العدد ٢٤١ من الرسالة

وكان مما أخذ الرافعي على شوقي وسماه غلطاً في النحو أو اللغة، أن شوقي ابتداءً بالنكرة في قوله:

ليلي | منادٍ دعا ليلي تخف له | نشوان في جنبات الصدر عرييد
وهي هناة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجهاً من التعليل وباباً من العذر

والمقاد أديب له شهرته المريقة في عداوة شوقي والزراية بأدبه وفنه؛ فما يعرف أديباء العربية أحداً كان أبلغ عداوة لشوقي - أو أحد لساناً في نقده من العقاد!

ولكن العقاد لم يكف بفرغ من قراءة مقالة الرافعي في المقتطف، حتى تناول قلمه ليكتب كلمة يرد بها رأي الرافعي في نقد هذا البيت ويمتدح عن شوقي... وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب!

ليت شعري، أفعلها العقاد دفاعاً عن شوقي وهو من هوفي عداوته، أم تحدياً للرافعي؟

أفلم يجد العقاد في بضعة عشرة صفحة يكتبها الرافعي مباحياً بشوقي، مفاخرأ بأدبه وفنه وعبقريته شيئاً يستحق الرد والتعليق غير هذه الكلمة؟ هذا سؤال سألته نفسي يومئذ، وأحسب أن كثيراً من القراء سألوه أنفسهم؛ ولكن جواب هذا السؤال معروف لكل من يعرف ما كان بين الرافعي والعقاد، ثم ما كان بين العقاد وشوقي منذ قريب!

وقال لي الرافعي: « ماذا ترى فيما كتب العقاد؟ »

قلت: « أما وهو على رأي واحد فيما يرد به! »

فط شفتيه ساخرأ وهو يقول: « أخطأت، وأخطأ العقاد، وأخطأ المتأخرون من علماء النحو في العربية... ليس الرأي ما يقول العقاد وتواقفه عليه... »

وتملكه عناده وكبرياؤه؛ فأنشأ مقالة طويلة مسهبة يرد بها رأي العقاد، ويصر على مخطئة شوقي في الابتداء بالنكرة، ويتهم المتأخرين من علماء النحو بالغبلة وقلة البصر بأساليب العربية؛ ثم يفيض ويسترسل في بيان أوجه الابتداء بالنكرة وما يصيب منها وما يخطئ!

وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأي فيما كتب الرافعي في هذا الموضوع؛ فإن لي أن أرد كل شيء إلى أسبابه، فأزعم أن الرافعي لم يكتب ما كتب خالصاً لوجه العربية، ولكنها الكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد في معركة أدبية...!

له أو عليه مجتمعين ؛ ثم يكون ما اتفقنا عليه من الرأي في هذا الجيد المختار هو الرأي في الديوان كله ، من غير أن يتقلب الهوى أو تتحكم الشهوة ... ! »

ورضينا رأى الرافعي ، فأخذنا الديوان قلبه صفحة صفحة ، وقرأه بيتاً بيتاً ؛ والرافعي منصرف عنا إلى كتاب بين يديه ... ومضت فترة ، واستبطننا الرافعي فيما دعانا إليه فقال : « أحسبكم لم تجدوا ما تطلبان ! ولئن تجدا ... إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته ؛ فإحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره ... ! »

وتناول الديوان بقرأ منه ونستمع إليه . ووقفنا عند أشياء ، وتداولنا الرأي في أشياء . وكان أكثرنا حماسة في النقد هو الأستاذ مخلوف . ومضت ساعات ونحن نقرأ ، ولكل رأى يديه . ثم طوينا الديوان وأخذ الأستاذ مخلوف يتحدث في موضوعه ... وقال الرافعي مخاطبه : « ... وما دمت على هذا الرأي في الديوان فلماذا لا تنشره ؟ إن لك لساناً وبياتاً ، وإنه لنقد » يستحق أن يقرأه أدباء العربية ... ! »

وتردد مخلوف قليلاً ثم سمع مشورة الرافعي ... وتنهياً لكتابة نقده ...

ومضى أسبوع ، ثم نشر « المقطم » في صدره مقالا مجوداً للأستاذ مخلوف في نقد ديوان وحى الأربمين ، تناوله بأدب وهدوء في بضعة عشر موضعاً ، وأرجأ بقية النقد إلى عدد نال .. ومضى يومان وكتب العقاد في صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد رده على مخلوف ...

لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدراً أن الأستاذ العقاد سيتناوله بهذه القسوة ، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد ...

لم يرد العقاد على مخلوف رده الأديب على ناقد ، ولكنه راح يهكم عليه ويسخر منه ويستهمز به بعلفه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر . وإذا كان مخلوف من مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة ، فإن العقاد قد انتهزها سانحة ليطمن على مدرسي اللغة العربية في مدارس الحكومة ، ويلحد في كفايتهم وعلمهم ، ويمود بالسبب في ضعف اللغة العربية في المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف . ولم تسلم مدرسة دار العلوم ، ولا واحد من

ولست أكنم هنا أن الرافعي كان يسمى الظن بفهم العقاد لتواعد اللغة ؛ فما يرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا أنهمه بأنه يستمين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة . وأحسبه قال لي مرة : إن الذي يمين العقاد في ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجليل !

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء ، ولكنني أحسب أن الرافعي نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب في الرد على العقاد فبقى في نفسه شيء يحمسه إلى معركة جديدة ، فلم يلبث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة ...

وحى الأربمين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر ، ثم أصدر العقاد ديوانه

« وحى الأربمين »

ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان ؛ ثم كان عيد من الأعياد ، فندوت على بيت الرافعي لأهنته ، ثم خرجنا نطوف بيوت بعض الأصدقاء ؛ حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسنين مخلوف . والأستاذ مخلوف أديب مطلع ، لا يفونه كتاب مما تخرج الطبعة العربية . فلم يكن ثمة بد من الحديث في الأدب ، وفي الشعر ، وفي المطبوعات الجديدة ، وهو حديث يحلو للرافعي ، ويحلو لمخلوف ، ولو استغرق هذا الحديث سحابة يوم العيد من الضحى إلى العصر ، والبطن خاو يطلب الطعام ، ورأحة الشواء تفوح في بيت الضيف وفي بيوت الجيران ! وسأل الرافعي مضيفه : « ماذا عندك من الجديد في الكتب ؟ » وضحك مخلوف وهو ينمزم بعينه ويقول : « وحى الأربمين ! » ووجد الرافعي طلبته ، فدعا بالديوان الذي يود أن يقرأه منذ أيام ويعنمه من شرائه أنه كتاب العقاد ... !

وجاء الديوان فوضعه الرافعي بين يديه وقال : « لست أريد أن أتجنى على العقاد الشاعر أو أحكم في ديوانه برأى قبل أن تنهياً لي أسبابه ؛ وإنني لأخشى أن أفتح الكتاب فتقع عيني أول ما تقع على أرد ما فيه فأحكم على الديوان ببعضه ، وقد يكون فيه الجيد ، وما هو أجود ، وما تنقاصر أعناق شعراء العربية دون الوصول إليه . وإن بيني وبين العقاد لسابق عداوة ، وأنتا بريتان من التهمة وسوء الظن ؛ فدونكما الديوان قلباً فيه النظر ، وتداولوا فيه الرأي ، ثم دلاني على أجود ما فيه لنقرأ معاً فنحكم

من حبرنا العربي

كنت أشكو ذات يوم عسراً في المضم وقلة في النوم ، وأضيق ذرعاً بالأدب والأدباء ، وإذا زائر أديب يلج في طلب رؤيتي ولا يريد أن ينصرف حتى يجاب إلى ما طلب . وعلمت أنه ممن لم يسبق لهم أن رأوني ؛ فخطرت لي خاطر سريع : ناديت تايماً لي وأجلسته إلى مكنتي وطلبت إليه أن يقابل الزائر باسمي ، وانتهيت أما جانباً أقرأ إحدى الصحف . ولم يلبث الزائر أن دخل وسلم على تايبي في احترام قائلاً :

— يا أستاذ ، إني سعيد جداً إذ استطعت أن أراك . فأنا من قرائك المدمنين ، اقتنيت كل كتبك ، وطالما رسمت لك في تخيلتي صورة أراها الآن طبق الأصل ... فالحمد لله لم يجب ظني في شيء . إني أراك الآن كما تخيلتك بين سطورك

فطرحت من يدي الصحيفة ونظرت إلى الرجل مخملاً . أهذا الرجل جاد صادق ؟ لا شك عندي في ذلك ، فكلامه مغمم بالحرارة والاخلاص ، ولكن كيف انطبقت تلك الصورة «طبق الأصل» على غير «الأصل» بهذه السهولة ؟ ! وجمل هذا الزائر بكثير من ترويض اسمي ويسبته في اقتناع على سكرتيري الجالس إلى مكنتي ، فشمرت بخليجة من شك هزت نفسي . ماذا أتقني إذن ؟ هذا هو «توفيق الحكيم» إلى مكنته كما يعتقد الآن هذا الزائر ، وتلك صورته كما ظهرت له من بين السطور . أما أنا فشيء لا علاقة له بهذا الرجل ولا بما قرأ . إسمي قد انفصل عني وانتزع مني في تلك اللحظة كما تنتزع الأمضاء عن «الكببالة» . وما أنا في تلك الساعة إلا كتلة من لحم ودم ملقاة على مقعد ، وقد خيل إلي أن لفظ «توفيق الحكيم» ليس أكثر من «ماركة» توضع فوق كتب ، مثل ماركة «الفابريك» فوق علب «السادين» . إن بعض «الأسماء» لتتخذ لها أحياناً حياة مستقلة عن أصحابها . وهذا «الاسم» هو وحده الذي يباع ويشترى في سوق المكاتب والوراقين ، ولدى الصحف والمجلات ؛ أما الشخص فقد لا يعني أمره كثيراً من الناس . ولأول مرة أدركت أنني غير موجود في نظر الجمهور باعتباري «شخصية آدمية» ؛ إنما الذي يماهونه هو «الشخصية الممتوية» ، فتبلى في ذلك إذن مثل شركة «النور» و«الغاز» و«المياه»

توفيق الحكيم

مدرسي اللغة العربية ، من تهكم العقاد وسخريته في هذا المقال ، لأن واحداً منهم كتب يتقدمه ويحاول رده إلى الصواب فيما رآه أخطأ فيه ...

وكتب مخلوف مقاله الثاني ردّ مطاعن العقاد ، ويتم ما بدأ في نقد وحي الأربعين ؛ ولكن القلم أغلقت دونه الباب ولم تنشره ، كرامة للعقاد وحرصاً على مودته ...

وغضب مخلوف وتألّم ، ولكنه طوى صدره على ما فيه ... وكنا جماعة من مدرسي اللغة العربية نصلي الجمعة كل أسبوع في مسجد المنشاوي بطنطا ، فلقينا هناك مخلوف ؛ فآراه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالمتب القاسي ، وكاهم قرأ مقال العقاد في الطعن على مدرسي اللغة العربية بسبب مخلوف ، وما منهم من قرأ مقال مخلوف إلا قليل . وحاول مخلوف أن يمتدح ، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد ؛ وقلت للرافعي مازحاً ولقد لقيته بعد ذلك : «لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفاً من إخوانه ، وفيما نال مدرسي اللغة العربية من لسان العقاد ؛ فأنت الذي هجيت مخلوفاً إلى هذه المعركة ، فأنتهت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه ؛ وكانت سبباً فيما كتب العقاد عن دار المعلوم ومدرسي اللغة العربية ...»

وكان لمخلوف عند الرافعي منزلة ، ولدار المعلوم في نفسه مكان . ولكنه أجابني : «وماذا عليّ أنا فيما كتب مخلوف ، وفيما ردّ العقاد ؟»

قلت : «لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه . ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار المعلوم ربيثة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد ؛» وقصدت فيما قلت — وممذرة إلى الأستاذ العقاد — أن أهيج الرافعي للكتابة عن العقاد ، فيشهد أدباء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم من ورائها نفع ومتاع ولذة ... وبلنت ما قصدت إليه ، ووعد الرافعي بأن يكتب ما في نفسه من ديوان وحي الأربعين ، ولكن على شرط : أن أشتري له نسخة على حسابي من الديوان ، لأز عليه قسماً من قبل ألا يدفع قرشاً من جيبه في كتاب من كتب العقاد ... !

ونفذت الشرط ، وتهياً للرافعي للكتابة عن وحي الأربعين ؛ ومضت أيام ، ثم دعاني ليل على مقالته الأولى في نقد وحي الأربعين

«شبرا»

محمد سعيد العريانه